الفصل الثالث

الصراعات المذهبية مع بداية الحكم السامانـي

- الاتجاهات المذهبية والفكرية قبيل حكم السامانيين.
- السامانيون واتجاههم المذهبى.
- موقف السامانيين من الفرق المعارضة.
- نمو التصوف ودور المتصوفة في عهد السامانيين.

نبدأ هذا الفصل بالحديث عن بداية الصراع المذهبي مع بداية حكم السامانيين، بعدما رسمنا معالم الخريطة المذهبية وانتشارها في خراسان، ومدى تأثير الواقع الاجتماعي والاقتصادي على الفكر المذهبي، وبالتالي ازدياد الصراع بين المذاهب والفرق، وذلك ما سنحاول إثباته مع بداية الحكم السامانى الفترة التي شهدت العديد من التغيرات السياسية والمذهبية الكبيرة، لكننا سنبدأ هذا الفصل بالحديث عن الاتجاهات الفكرية والمذهبية قبيل حكم السامانيين أي فترتي الطاهريين والصفاريين باعتبارهما ذواتى أثر كبير في ازدياد الصراع المذهبي.

الاتجاهات المذهبية والفكرية قبيل حكم السامانيين:

من المعروف أن الطاهريين سنيو المذهب مثل الخلافة العباسية التي جعلت المذهب السني الحنفي مذهبا رسميا للدولة، وبالتالي له السيطرة على دويلات المشرق الإسلامي، لكن هناك اتجاهاً فكرياً آخر وهو وجود الشيعة والخوارج وقيامهما بنشاط قوى في خراسان إبان فترة الطاهريين والصفاريين و استمراره فيما بعد.

فضلاً عن ذلك مساندة الخلافة العباسية للطاهريين في سبيل القضاء على ثورات الشيعة والخوارج، بل وقيام بعض الخلفاء العباسيين ببعض مظاهر التطرف مثلما حدث عام ٢٣٦هـ/٨٥٠م عندما أمر الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦- ٨٦١م) بهدم قبر الحسين بن على بن أبى طالب وما حوله من المنازل والدور[١].

لكنه من اللافت للنظر أن الطاهريين لم يقوموا بنشاط كبير ضد الشيعة مثلما فعلوا ضد الخوارج، ففي تلك الفترة كان نشاط الخوارج كبيراً خصوصاً في منطقتي سجستان وخراسان، والعكس كان الشيعة يتخذون مركزاً للدعاية لهم وهو مدينة بيهق وهى قصبة ولاية بيهق وهى من أهم مراكز الدعاية للشيعة في عهد الطاهريين[٢].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص٢٦٤

(٢) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٠٢

ودليل على ذلك أننا لم نسمع بعد عن مقاومة للطاهريين ضد الحركات الشيعية بعد حركة محمد بن القاسم العلوي (٢١٩هـ/٨٣٤م) بالطالقان(*) التي قضى عليها عبد الله بن طاهر، ربما أن الشيعة قد لجأوا إلى اتباع السرية الكاملة في دعوتهم ولاسيما الزيديون الذين أظهروا دعوتهم في طبرستان عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م على يد الحسن بن زيد العلوى [١].

أما نشاط الخوارج في عهد الطاهريين كان كبيرا ففي وجود طلحة بن طاهر نائباً عن أخيه عبد الله بن طاهرعلى خراسان ٢٠٩هـ/٨٢٤م قامت الخوارج بحركة تمردية تزعمها "حمزة الخارجى"(*) في ولاية سجستان وبالفعل أنفذ طلحة جيشاً إلى هناك وتم قمع هذه الحركة الخارجية، وبعدما مات طلحة (٢١٣هـ/٨٢٨م) حل مكانه ابنه على بن طلحة وخرج جماعة أيضاً في نواحى نيسابور وقتلوه، وأيضاً في عام (٢١٦هـ/٨٣١م) استأصل عبد الله بن طاهر أغلب خوارج خراسان[٢].

أما عن الهوية المذهبية للصفاريين فقد ذهب البعض[٣] إلى القول بتشيع

(*) الطالقان :هي مدينة أقرب إلى الديلم، والطالقان بلدتان إحداهما بخراسان بين مروالروذ وبلخ بينها وبين مروالروذ ثلاث مراحل، والأخرى بلدة بين قزوين و أبهر وبها عدة قرى يقع عليها هذا الإسم، وإليها ينسب الصاحب بن عباد . (انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٦-٧)

(١) المسعودى، مروج الذهب، ج٤، ص٥٢ ؛ المقدسى: البدء والتاريخ، ج٦، ص١٢٣ ؛ فتحى أبو سيف: تاريخ الدولة العباسية، ص١٢١ ؛ فضيلة عبد الأمير الشامى: تاريخ الفرقة الزيدية بين القرن الثانى والثالث الهجرى، رسالة ماجستير١٩٦٩م، ص١٦٢

(*) حمزة الخارجى: هو حمزة بن أدرك الخارجى عرف بين أهالى سجستان بايعه أهلها من أعوان (قطرى بن الفجاءة) ظل يحارب الخلافة منذ أيام هارون الرشيد حتى قضى عليه طلحه عام ٢١٣هـ (انظر: ميرخواند، روضة الصفا، ص٥٤)

(٢) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، ط دار صادر بيروت ١٩٩٢م، ج٢، ص٤٩٥ ؛ جوزجاني : طبقات ناصري، ص١٩٢؛ ميرخواند : روضة الصفا، ص٤٩ ؛ مسعود أحمد مصطفى: أقاليم الدولة الإسلامية، بين اللامركزية السياسية واللامركزية الإدارية، ط الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠٦م، ص٢١٥

(٣) نظام الملك، سياست نامه ، ص٤٠ ؛ حمد الله مستوفى قزويني: تاريخ كزيده ، ص٣٧٤

الصفاريين وانضمامهم إلى الشيعة الإسماعيلية سراً.

إلا أننا نرى أن نتوقف ملياً لمناقشة النقطة السابقة ألا وهى انضمام يعقوب بن الليث الصفاري إلى الإسماعيلية هل هي حقيقة أم لا؟ ولماذا؟

من المعروف أن يعقوب الصفار عامل النحاس الذي انضم إلى فرقة العيارية أي قطاع الطرق الذين يسرقون الأموال من الأثرياء والإقطاعيين ليوزعوها على أنفسهم بالتساوى، ثم بعد فترة بدأ يتنامى إلى فكره السيطرة والانفراد أو الاستقلال عن العباسيين، فبدأ بمناوشات عسكرية مع أتباعه على نواحي الخلافة إلى أن سيطر على سجستان وخراسان وفارس حتى قرر مباغتة العباسيين في عقر دارهم وحاضرة خلافتهم في بغداد والاستيلاء عليها، فبعد هذا كله من الطبيعي أن يتم إجهاض لهذا التمرد والخروج من قبل يعقوب وأتباعه، فبدأ الخليفة العباسي المعتمد(٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٦٩-٨٩٢م) بمراسلة يعقوب لمحاولة عدوله عن موقفه، لكن يعقوب مازال مصمماً على دخول بغداد، ومن ثم استخدمت السلطة العباسية هنا بما يسمى بـ(الدعاية والتشهير) ضد يعقوب حتى تستعدي الرعية وأعوان الخلافة ضد يعقوب وأتباعه، ولاسيما أن في ذلك الوقت كان هناك نشاط اسماعيلي في خراسان بل ونشاط قوى ومحاولة السلطة العباسية قمعه، فلا ضرر من أن يوصف يعقوب بهذا الوصم بأنه انضم إلى الإسماعيلية- باعتبارها فرقه ملحدة- ووضح ذلك بشدة في خطاب الخليفة المعتمد ليعقوب قائلاً:" ما أرى يعقوب بن الليث إلا قد شق عصا الطاعة فهو يسعى إلينا بالخيانة لأننا لم نأمره أن يقبل علينا، وأحسب أنه قد دخل في بيعة الباطنية"، بالطبع وضح من نبرة خطاب المعتمد التشهير بيعقوب أنه دخل بيعة الباطنية أو الإسماعيلية.

ونكاد نلمح أن هناك حالة من العناد بين يعقوب بن الليث والخلافة ليس من الناحية المذهبية بل سعى يعقوب لتأديب الخلافة.

نخلص مما سبق أن الهوية المذهبية للصفاريين هي المذهب السني حيث دعوا للخليفة العباسى على المنابر لاكتساب رضا الخلافة، إلا أن الصفاريين

لـم يـؤدوا الأمـوال المنتظمـة لحكومـة بغـداد وطبقـوا العـدل والمسـاواة بـين اتباعهم، فأدى ذلك إلى تأييد الطبقات الفقيرة في سجستان[١].

إلا أنـه بـالرغم مـن قيـام الصـفاريين بقتـال الخـوارج والشـيعة الزيديـة فـي بـادئ الأمـر- لتوطيـد أركـان دولـتهم- فقـد كـانوا متسـامحين مـع المـذاهب والأديـان الأخـرى حفاظـا علـى دعـم الأمـن والاسـتقرار فـي عصـر مـار بالفوضـى السياسـية والسخائم العنصرية والنزاعات المذهبية والطائفية[٢].

السامانيون واتجاههم المذهبى:

لقـد كـان السـامانيون - منـذ اسـتقلالهم بولايـة مـا وراء النهـر ثـم صـدور منشـور مـن الخلافـة بولايـة خراسـان- فـي احتيـاج لـدعم الخلفـاء العباسـيين وعهـود توليـة لكـى يصـبح حكمهـم شـرعياً ومـن ثـم فقـد كـانوا علـى نفـس المـذهب الرسـمى وهـو المـذهب السـنى الحنفـى[٣]، معتـرفين بـأن الخليفـة العباسـي ببغـداد هـو أميـر المـؤمنين وقـد اقتفـوا فـي سـيرتهم هـذه مسـلك الطـاهريين، ولهـذا كانـت شـريحة رجال الدين وعلماء الدين يستظهرون دوماً بالأمراء السامانيين[٤].

وعن تعصب الأمراء السامانيين للمذهب السنى يرى المؤرخ عباس إقبال[٥] أنـه بـالرغم من السيرة العادلـة – نوعـاً مـا- للأمير إسماعيل بن أحمد السامانى (٢٧٩-٢٩٩هـ/٨٩٢-٩٠٧م) إلا أنه كان متعصباً للمذهب السني ومن ثم ظل تابعاً صميماً وخاضـعاً مطيعـاً للخلفـاء العباسـيين، الأمرالـذي جعلـه دائمـاً فـي حـرب وقمـع للفـرق المعارضة وأبرزهم الشيعة.

وقـد بلـغ التعصـب للمـذهب السـني أشـده حـين قـام الأميـر "نـوح بـن نصـر

---

(١) محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ط.دارالفكر العربي ١٩٦٥م، ص٨١

(١) محمود إسماعيل، المهمشون في التاريخ الإسلامي، ص١٧٢

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٤٩ ؛ عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص١٢٣

(٣) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٦٣

(٤) تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٣٨

السامانى" (٣٣١-٣٤٣هـ/ ٩٤٢-٩٥٤م) بتعيين أحد الفقهاء المعروفين وهو"أبو الفضل محمد بن أحمد السلمى المروزى" الملقب بالحاكم الجليل كقاضي بخارى كأمير خراسان ووزيرا له، إلا أنه لم يكن على دراية كاملة بالأمور السياسية والإدارية، حيث كان يصرف معظم أوقاته في أمور الصلاة والعبادة وكتب الفقه، ولهذا حدث انهيار تام في أساس الدولة السامانية[١].

أما بالنسبة لتعصب السامانيين أو اعتناقهم للمذهب الحنفي فقد أثر هذا على إذكاء تعصب بين الحنفية والشافعية، ولاسيما أن المذهب الحنفي بخراسان له الغلبة على عكس المذهب الشافعي الظاهر بولاية ما وراء النهر أيام حكم السامانيين لها، مما كان له أبلغ الأثر على نشاط الشافعية الذين حاولوا إيجاد غلبة لهم في خراسان[٢].

ولقد انتشر الفقه الشافعي في بلاد ما وراء النهر على يد الإمام "أبي بكر محمد ابن على بن إسماعيل القفال الشاشي" ت:٣٣٠هـ/٩٤١م حيث إنه كان فقيهاً محدثاً أصولياً لغوياً شاعراً، رحل إلى خراسان وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء وعنه أخذ الشافعية المذهب في ما وراء النهر ونشروه وتوفى بالشاش[٣].

فهذا بجانب وجود إمام كبير بل وقاضٍ تولى القضاء بمدينة نيسابور وهو شيخ الشافعية بها "محمد بن الحسين بن محمد بن الهيثم البسطامى" فقد تولى القضاء في نيسابور عام ٣٨٨هـ/٩٩٨م وتوفى عام ٤٠٨هـ/١٠١٧م[٤].

من ناحية أخرى كان للاتجاه السني للسامانيين أثر كبير على نواحي

---

(٥) نظام الملك، المصدر السابق، صـ٢٧٠؛ عباس إقبال، المرجع السابق، ص١٤٧ ؛ كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، ج٣، ص٢٨٦

(١) الشيرازي، طبقات الفقهاء، صـ ١١٥؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، صـ٣٢٤؛ محمد أبو زهرة، الشافعى، ص٣٧٣

(٢) الشيرازى، طبقات الفقهاء، ص١١٢ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٣٨ ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٣، ص٥١-٥٢

(٣) الحنبلي، المصدر السابق، ج٣، ص١٨٧

الأدب أو بالأحرى انتشار اللغة العربية بعد اللغة الفارسية، إذ إنهم باعتبارهم حماة لأهل السنة فقد ألفت كتب في العقائد باللغة العربية للحد من خطورة الفكر الشيعي، ثم ترجمت هذه الكتب للغة الفارسية[١].

فضلاً عن ذاك الأثر فقد كان هناك ثمة أثر أخر عن اعتناق السامانيين للمذهب السني وهو نشر الإسلام –على المذهب السني الحنفي- بين قبائل الأتراك ولاسيما أسرة القراخانين[*] وقد دخلت تلك الأسر الإسلام وتسمى زعيمهم "ستق بغراخان" باسم عبد الكريم، أما حفيدة "هارون بغراخان" أغراه ماوجده في الجنوب من فراغ عقب اضمحلال السامانيين فاستولى على بخارى[٢] عام ٣٨٢هـ/٩٩٢م.

وما كاد ينتصف القرن الرابع الهجري حتى دخل أغلب الأتراك الشرقيين في الإسلام -المقدر عددهم ما يقرب من مليون نسمة- وانتشر الإسلام على المذهب السني[٣].

موقف السامانيين من الفرق المعارضة:

كما أوضحنا في النقطة السابق ذكرها كيف أن أصحاب المذهب السني قد انشقوا على أنفسهم ما بين حنفية وشافعية ودخلوا في نزاعات وصراعات، لدرجة أنها وصلت كما ذكر المقدسي[٤] إلى إراقة الدماء بين أصحاب الإمام أبى حنفية وأصحاب الشافعي في سرخس، والآن فما بالنا بموقف السامانيين من المعارضين من المذاهب

---

(٤) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٨٧

(*) القراخانيون: كان المستشرقون أول من اطلق هذا اللفظ، نظرا لتواتر كلمة (قرا) بمعنى الأسود أو القوى في ألقابهم، كما يعرفون باسم خانات الـ"إيلك" ويطلق عليهم أيضاً "آل افراسياب" اي بيت آفراسياب نظرا لوجود نوع من القرابة الإفتراضية التي تصل نسبهم بأمير توران في شاهنامة الفردوس (بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص١٦٣ ؛ استانلي لين بول: طبقات سلاطين الإسلام، ترجمة: مكى طاهر ط١ الدار العالمية- القاهرة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، ص١٢٩)

(١) بوزورث، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة:حسين اللبودى، ط٢ عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٥م، ص١٨٧

(٢) هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، ص٥٥

(٣) أحسن التقاسيم، ص٣٣٦

الأخرى كالخوارج والشيعة.

بالنسبة للخوارج لم يكفوا عن نشاطهم بالرغم من كسر شوكتهم بسجستان بعد مقتل حمزة بن أدرك ومن جاء بعده إلا أنه في عام ٣٠٠هـ/٩١٢م خرج "محمد هرمز" المعروف بالمولى الصندلى وهو من أهالي سجستان وقد أقام ببخارى، وسبب خروجه أنه طلب من "الحسين بن على" صاحب العرض أي المسئول عن الشئون المالية بالجيش رزقه وحقه فرفض وقال له: "إن ضعف شيخوختك لا يناسبها إلا الإنزواء بناحية وأن تهتم بالعبادة " وبالفعل ذهب ابن هرمز إلى سجستان واستمال أهلها ودعا إلى عمرو بن يعقوب بن عمرو بن الليث الصفارى وبايعه سراً، وكان رئيسهم محمد بن العباسي المعروف بابن الحفار، واستطاع عمرو بن يعقوب دخول سجستان وخطب له إلا أن تمكن احمد بن إسماعيل الساماني (٢٩٥-٣٠١هـ/٩٠٧م-٩١٣م) من قمع هذا التمرد ودخل سجستان ومات ابن الحفار وعين عاملاً على سجستان يدعى "سيمجور الدواتى"[(١)].

أما ثاني فرق المعارضة والتى كان لها نشاط خطير ألا وهى الإسماعيلية التي ظلت تمثل شوكة وصداعاً مزمناً في رأس الخلافة العباسية، والدويلات المشرقية، ولاسيما أن نشاطهم في خراسان كان كبيراً.

ففي عهد الأمير نصر بن أحمد السامانى (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٣-٩٤٢م) قام شخص يدعى "الحسين بن علي المروروذى" بحركة تمرد على السامانيين وتعتبر تلك الحركة مختلفة عن سائر حركات المدعين بالمذهب الشيعى؛ و ذلك لأن "الحسين ابن علي" اعتنق المذهب الإسماعيلى على أثر دعوات الدعاة الإسماعيليين الذين كانوا يدعون في هذا الوقت الناس في الرى وخراسان وما وراء النهر بنشاط تام إلى هذا المذهب وتبعية الخلفاء الفاطميين في مصر، وأصبح الحسين من جملة الدعاة ودخل عداد الشيعة الفاطمية،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤٧٤ ؛ ميرخواند: روضة الصفا، ص٦٥ ؛ الكرديزى: زين الأخبار، ترجمة: عفاف زيدان، ط١ القاهرة . ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢م، ص٢٤٠

ودخل دعوته عدد لا بأس به من مواطني خراسان وما وراء النهر، إلا أنه قد اتسمت حركة "الحسين بن علي" بأهمية خاصة وكانت ضد أساس حكم السامانيين[1].

فلما انتشرت حركة الحسين بن علي في خراسان، بالطبع لاقى قمع من السلطة السامانية وتم سجنه على يد الأمير نصر بن أحمد فمات في سجنه[2]، وبعد موت الحسين بن علي لم يتوقف أمر الدعوة الإسماعيلية بل استمرت لكن على يد داعٍ آخر خلف الحسين بن على في خراسان وما وراء النهر وهو "أبو عبد الله محمد ابن أحمد النخشبي" حيث إنه من جملة فلاسفة خراسان ومتكلميها، ولاسيما أن الحسين بن علي المروزي قبل سجنه قد أوصى محمد النخشبي أن يستنيب عنه في خراسان نائباً، وأن يعبر هو إلى بخارى وسمرقند ويدعو أهلها إلى مذهبه، ليس هذا فقط بل يحاول استمالة أعيان حضرة الأمير نصر بن أحمد حتى يقوى أمره[3].

ولقد استطاع النخشبي بالفعل قبل رحيله إلى بخارى أن يضم في مذهبه كثير من أهالي خراسان، فضلاً عن أنه بعد رحيله إلى بخارى استخلف عنه نائباً يدعى، "ابن سوادة" وهو رجل من دعاة الحسين بن علي في مرو الروذ، وأيضاً نجح ابن سوادة في استقطاب بعض الأهالى إلى المذهب الإسماعيلي، لكن محمد النخشبي في بخارى لاقى صعوبات كثيرة في الدعوة لمذهبه هناك حيث لم يجد لأمره رواجاً ولم يستطيع المجاهرة به كما فعل في خراسان، لكن المفاجأة تكمن في أنه استطاع أن يدخل نديم أمير خراسان وهو "أبو بكر النخشبي" في المذهب الإسماعيلي وكان من ذوي قربى الأمير نصر بن

---

(٢) عباس إقبال، المرجع السابق، ص١٤١

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص٢٦٦ ؛ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص٨٤

(٤) نظام الملك، سياست نامه، ص٢٦٥ ؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص٢٠٧

أحمد[1].

بالإضافة إلى أنه أدخل "أبا بكر با أشعث" الكاتب الخاص بالأمير في مذهب الإسماعيلية، كما نجح محمد النخشبي في دعوة "أبي المنصور الجفانى العارض" زوج أخت "با أشعث" فاستجاب له، فضلاً عن "إيتاش" الحاجب الخاص الذى دخل أيضاً في المذهب، ثم إن هذه الجماعة التي انضمت للمذهب قالت لمحمد النخشبي لا حاجة لك بالمقام في نخشب (إحدى مدن ماوراء النهر) فانهض إلى الحضرة ببخارى أما نحن فنبلغ بأمرك السماكين في زمن يسير وتدخل الوجوه في هذا المذهب[2].

يتضح من النص السابق أن هناك خطة منظمة يتبعها الدعاة الإسماعيليون لنشر مذهبهم ألا وهى، أن دعوتهم سرية ثم تكون في بادئ الأمر بين العامة والفلاحين ومن ثم ينضم الكثيرون مثلما حدث مع الحسين بن علي ثم فيما بعد مع النخشبى وابن سوادة، أما أن تكون الدعوة لندماء الأمير الساماني وحاشيته فهذه جزء من الخطة والهدف منها حماية الدعوة بنوع من القوة، الأمر الذي يساعد كثيراً على نشر المذهب بين العامة، وقد وضح ذلك جلياً في قول ندماء وحاشية الأمير نصر بن أحمد عندما قالوا "فنبلغ بأمرك السماكين في زمن يسير" فذلك له دلالة على سرعة تلبية العمال والحرفيين للدعوة، مما يعكس البعد الاجتماعي لدعوة الإسماعيلية واستغلال سوء موقف الطبقة العاملة.

ويتبقى الجزء الكبير من خطة النخشبي وهو دعوة الأمير نصر بن أحمد الساماني السني إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي، وهو أمر يبدو غير مقبول بصفته أميراً لدولة سنية تنوب عن الخلافة العباسية في حكم خراسان وما وراء النهر.

فقد ورد في كثير من المصادر والمراجع أمرانضمام الأمير نصر بن أحمد

---

(١) نظام الملك، المصدر السابق، ص٢٦٥

(٢) نظام الملك، سياست نامه، ص٢٦٥

الساماني إلى المذهب الإسماعيلى، وقولهم بأن الداعي محمد النخشبي نجح –عن طريق ندمائه- الوصول إلى نصر بن أحمد الذي رحب بمبادئ المذهب ودعاه لمقابلته واستطاع النخشبي أن يستميل الأمير الساماني إلى جانب الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدى[١].

أورد أحد المؤرخين[٢] دليلاً على ميل نصر بن أحمد الساماني إلى المذهب الإسماعيلي وهو الكتاب الذي أرسله إلى الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال وقد قال في كتابه "أنا في خمسين ألف مملوك يطيعوننى وليس على المهدى بهم كلفة ولا مئونة فإن أمرني بالمسير سرت إليه ووقفت بسيفي ومنطقتى بين يديه وامتثلت أمره".

بعد عرض هذا النص يتطلب هنا وقفه هامة للتعليق عليه ؛ لأنها قضية جديرة بالاهتمام والمناقشة، وهو كيف ينضم أمير دولة سنية كبيرة إلى المذهب الشيعي؟، ويعتبر ذلك صورة من صور الصراع المذهبي بين السنة والشيعة في خراسان، والجدير أيضاً بالتحليل والمناقشة أنه لم يذكر أحد من المؤرخين أسباب ذلك أو حتى بالفعل هل دخل نصر بن أحمد في المذهب الإسماعيلي أم هو مجرد استمالة من الشيعة ودعاتهم؟ ولماذا لم يتم دعوة من قبلة مثل الأمير إسماعيل أحمد الساماني؟ بالطبع لم يكن الأمير نصر بن أحمد بنفس قوة الأمير إسماعيل بن أحمد في ضراوة نظامه في قمع الشيعة، بالإضافة إلى أن الأمير نصر بن أحمد تولى حكم خراسان وهو في سن ثماني سنوات، أي أن هناك وصياً عليه من البلاط الساماني إلى أن كَبُر وانفرد بالحكم حتى قام الحسين بن على المروروذى بثورته ضد السامانيين، واتخذ خلفاؤه بعد حبسه الدعوة للمذهب في خراسان، وبالفعل قد قدم الأمير الساماني

---

(١) ابن النديم، المصدر السابق، ص٢٦٦ ؛ نظام الملك: المصدر السابق، ص٢٦٦ ؛ حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص٢٠٧ ؛ محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص٨٤

(٢) محمد جمال الدين سرور، انقسام الدولة الإسلامية إلى دول مستقلة بالشرق وأثره في تطور الحياة الثقافية والسياسية، صـ١٤-١٥

نصر بن أحمد دية موت الحسين بن علي إلى الخليفة الفاطمي.

يلاحظ مما سبق مدى نشاط الدعوة الإسماعيلية في تلك الفترة بالذات، وأنها نحت منحى جديد في ثوراتها ضد الخلافة العباسية من جهة وضد الحكم السامانى من جهة أخرى، لكن أصحاب الأمير السامانى ورجال بلاطه من الأتراك أصحاب الضياع وذوي السلطة قد وقفوا ضد الأمير؛ لأنهم أحسوا بخطر العلويين على مصالحهم الاقتصادية المرتبطة بالإقطاعات والأراضي حيث إنهم منتفعون ببقاء الأمير السامانى، ومنتفعون بمقاومة الشيعة ؛ لذا فقد ثاروا عليه.

إذن لماذا قبل الأمير السامانى نصر بن أحمد الاستمالة إلى دعوة الإسماعيلية؟ حقيقة الأمر أن من مصلحة الأمير هدوء الموقف بالنسبة له أى أنه قَبِل الدعوة من ناحية إخماد ثورتهم وتهدئتهم، ولاسيما أن هناك أصحاب أخوة نصر قد انضموا للمذهب الشيعي؛ لذا فإنه من الممكن قد فكر في الاستجابة لهم وليس في الانضمام إليهم؛ لأن الانضمام يعني الاعتناق الكامل لأفكار الإسماعيلية وهذا لم يحدث بدليل أنه بعد ذلك أعلن رفضه لهم وعاود مقاومتهم وتنازل عن الحكم لصالح ابنه نوح بن نصر السامانى.

نأتى الآن إلى فرع من الإسماعيلية كانوا أكثر خطرا وهم القرامطة الذين يدعون إلى إمامة "محمد بن إسماعيل" حيث كان الداعى "حمدان بن الأشعث" الملقب بقرمط مد دعوته إلى سائر الأقطار، ولاسيما أنه أرسل دعاته إلى الطالقان إحدى نواحي خراسان يبث دعاته هناك، وقد قدم بالدعوة إلى خراسان عام (٣١٦هـ/٩٢٨م) رجل يدعى "أبا عبد الله الخادم" فأول ما ظهرت بنيسابور فاستخلف عند موته "أبا سعيد الشعراني" حيث دعا ناساً كثيرين إلى مذهب القرامطة[١].

لكن بعدما تولى الأمير نوح بن نصر بعد أبيه أخذ على عاتقه هو وقواده

---

(١) المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠١م، ج١، ص٢٤٥،٢٢٩

الأتـراك القضـاء علـى القرامطـة والإسـماعيلية قـائلاً: "نقتـل فمـا وراء النهـر وخراسـان كـل ملحـد وكـل مـن دخـل فـي المـذهب الـذي دخـل فيـه أبـي، ولكـم بعـد ذلـك أمـوالهم ومتـاعهم، فإنـه لا يليـق بمتـاع الباطنيـة ومـالهم إلا النهـب والإباحـة" [1]، فـدعا الفقهـاء لمنـاظرة النخشـبي فلمـا تغلبـوا عليـه أمـر بقتلـه وقتـل عـام (٣٣١هـ/٩٤٢م)[2].

وبالفعـل تـم قتـل مـن وُجِـد فـي خراسـان ومـا وراء النهـر مـن يـدعو إلـى المـذهب القرمطـي، وبالتـالي تغيـر أسـلوب الـدعوة الإسـماعيلية والقرمطيـة إلـى السرية مـرة أخـرى، لكـن يلاحـظ علـى لهجـة خطـاب الأميـر نـوح بـن نصـر وهـو يصـم القرامطـة بالإباحيـة، وذلـك لاسـتثارة الرعيـة وأصـحاب المـذاهب السـنية ضدهم وعمل حملة تشهير ضدهم.

لكـن الصـراع السـاماني الشـيعي لـم ينتـهِ بعـد، إذ قـام الأميـر إبـراهيم المنتصـر بـن نـوح الثـاني آخـر أمـراء الدولـة السـامانية ليحـافظ علـى عـرش أجـداده بمقاومـة الإسـماعيلية، لكنـه قتـل علـى يـد الإسـماعيلية عـام ٣٩٥هـ/١٠٠٤م أي بعـد القضـاء تمامـا علـى أسـرة السـامانيين ٣٨٩هـ/٩٩٨م علـى يـد الغزنـويين والإيلخانيين الترك الذين استولوا على بخارى عام ٣٨٢هـ/٩٩٢م[3].

نخلـص ممـا سـبق أن موقـف السـلطة السـامانية مـن فـرق المعارضـة كـان عنيفـاً ضـارياً حيـث أنهـم قمعـوا كـل فكـر معـارض لسياسـتهم، ولاسـيما أنـه سيضـر بالمصـالح المرتبطـة بالإقطاعـات والأراضـي خصوصـاً أن بـلاط السـامانيين ملـئ بـالقوة العسـكرية التركيـة المسـتفيدة مـن الموقـف، أي أن الصـراع المـذهبي فـي عهـد السـامانيين كـان فـي مضـمونه صـراعاً اجتماعيـاً اقتصـادياً متخـذاً شـكلاً

---

(١) نظام الملك، المصدر السابق، ص٢٧٠ ؛ ناصر خسرو: سفرنامه، ترجمة : يحيى الخشاب ، ط ٣. دار الكتاب االجديد – بيروت ١٩٨٣م، ص٧

(٢) محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص٨٤

(٣) العتبي، تاريخ اليميني، ج١، صـ٢٩٦؛ أبي الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٢، صـ١٤١؛ أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ط . دار المعارف- مصر، د. ت، ص٢٧٧.

مذهبياً.

نمو التصوف ودور المتصوفين في عهد السامانيين:

امتاز هذا العقد بدخول الصوفية المنطقة حيث أصبح رجالها إحدى القوى المؤثرة في منطقة خراسان، كما تعاظم دور الفقهاء في توجيه الأمراء والساسة وكانوا موضعاً للشورى ومن ثم تمت محاولة للتوفيق بينهم وبين الصوفية، حيث إنه من الثابت تاريخياً أن مدن هرات ونيسابور ومرو كانت تعج بالصوفية إبان القرن الثالث الهجرى، وفى القرن الرابع الهجرى انتشر المتصوفون في مدن بخارى وفرغانه وكانوا يطلقون على مشايخهم ألقابا مثل (بابا) ويعنى عندهم الأب، واستقر التصوف وانتشرت التكايا والزوايا في معظم بلاد تلك المنطقة[١].

إلا أن الصوفية كانوا يتعمقون بالعقيدة في نفوس طبقات السذج والعوام حيث كانوا لا يتحدثون عن الجهاد أو الاستشهاد بقدر ما يتحدثون عن الخير والبر والعذاب والعقاب ويكسبون قلوب العامة في مناطق البدو بحياتهم المتقشفة وزهدهم[٢].

أما عن أشهر مدارس الصوفية التي انتشرت أيام السامانيين، منذ منتصف القرن الثالث الهجري انتقل مركز التصوف من بلخ أقدم مركز للتصوف في خراسان إلى نيسابور حيث ظهرت فرقة (الملامتية) ولم تكن مدرسة نيسابور منقطعة الصلة بمدرسة بلخ ومدرسة بغداد بل كانت على صلة بها عن طريق الزيارة والتلمذة والصحبة، وقد نشأت على يد "أبي صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار" النيسابورى (ت: ٢٧١هـ- ٨٨٤م) ومعه "أبو حفص الحداد"[*]"[١].

---

(١) هدى درويش، المرجع السابق، ص١٠١

(٢) حسن أحمد، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى، ص١٣٥

(*) أبو حفص الحداد: هو عمرو بن مسلم ولد بمدينة نيسابور في قرية كورداباذ، كان كبير القدر صاحب أحوال وكرامات وعلى قدر كبير من الجود والسماحة والسخاء، وقد صحب عبيد الله بن

يلاحظ من اسم مؤسس تلك المدرسة الملامتية أن الطابع الحرفي له دور رئيسي في إقناع العوام وانخراطهم في سلك التصوف، لاسيما أن التصوف في بدايته انتشر بين العوام من ضمنهم أصحاب الحرف مثل القصار أي مبيض الثياب والحداد، وارتباط هذا بالأفكار الخاصة بالملامة والفتوة.

ويقوم التصوف الملامتي على أساسين رئيسيين (الملامة والفتوة) وهما أكثر المصطلحات جريانـاً على ألسنة هذه الفرقة، فالملامة يقصد بها كبح جماح النفس واتهامها وتأنيبها على ما فرط منها، ورؤية التقصير فيما يصدر عنها من أعمال الطاعة، وأما الفتوة فاسم أطلق في الأصل على مجموعة من الفضائل أخصها الكرم والسخاء والمروءة والشجاعة، فلما دخلت إلى أوساط الصوفية اكتسبت معنى الإيثار والتضحية وكف الأذى وترك الشكوى ومحاربة النفس، وقد ظهرت كل هذه المعاني في كتابات الصوفية والملامتية على السواء وشكلت أفكارهم ونظرتهم إلى الحياة الروحية [٢].

نستخلص من الفقرة السابقة شيئاً هاماً ألا وهو تأثير الوضع الاجتماعي على أفكار الصوفية، ودليل على ذلك فكرة الفتوة التي برزت بشدة في أدب الصعاليك وشعرهم، فعندهم فكرة الصعلكة والفتوة والشهامة أساسية بالإضافة إلى وجود شريحة العوام والفلاحين، وهى إشارة إلى انتشار تلك الأفكار بين طبقة العوام.

نقف عند نقطة أخرى مهمة أثارها أبو العلا عفيفي القائل:" بأن أساس تلك المعاني الملامتية والفتوة مأخوذ من الفلسفة الزرادشتية والهندية" . نكاد نلمح هنا تأثر المؤلف بفكرة التأثر بالغير؛ لأن التصوف الإسلامي بمعانيه المختلفة نشأ إسلامياً خالصاً

مهدى الأبيوردى، وتوفى عام ٢٧٠هـ وقيل ٢٦٥هـ. (انظر: أبى عبد الرحمن السلمى، طبقات الصوفية، ص٢٧ ؛ ابن العماد الحنلبى: شذرات الذهب، ج٢، ص١٥٠).

(٣) السلمي، أصول الملامتيه ، ص١٥

(١) أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ط١ دار المعارف الاسكندرية ١٩٦٣م، ص٦٩

متأثراً بواقع اجتماعي واقتصادي وسياسي، فنحن لا ننفي وجود بعض التأثيرات لكن من الممكن أن تكون تأثيرات خاصة بممارسات التصوف البدنية والروحية عند بعض الطوائف، فضلاً عن أن تلك المعاني الواردة عن الملامتية موجودة بالفعل في القرآن الكريم ممثلة في الآية رقم (٢) في سورة القيامة قال تعالى: «**وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**» إذن هناك إشارة في القرآن قائلة بالنفس اللوامة، كذلك الفتوة التي معناها التضحية والإيثار موجودة أيضا في القرآن الآية (٩) في سورة الحشر قال تعالى: «**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**»، وأيضا جهاد النفس في الآية (٤٠) في سورة النازعات: «**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**».

وهناك مدرسة أخرى ظهرت من أشهر المدارس في خراسان والمشرق عامة وهي المدرسة الحلاجية أي المعبرين عن وجهة نظر الحلاج في الحب الذاتي، والذى عبر عنها في خراسان هو "أبو الحسن الخرقانى" (٣٧٥-٤٢٥هـ/٩٨٥-١٠٣٣م)، لكن بعد موته لم يخلف الخرقاني لا كتباً ولا رسائل وإن احتفظت أعمال كتاب السير المتأخرين وخاصة "تذكرة الأولياء" لفريد الدين العطار (ت:٦١٩هـ/١٢٢٢م) بكم هائل من أقواله، وفى أحد أقواله يذكر الخرقانى مجازياً العشق وكأنه قطرة في محيط الأبدي أو بعبارة أخرى في الذات الإلهية[١].

أما عن دور الأمراء السامانيين واهتمامهم بالصوفية، فيشير المقدسي[٢] إلى كثرة الخانقاوات بخراسان وما وراء النهر، وهى بيوت للعبادة كان يتخذها المتصوفون للنسك والإقامة، وهيأت هذه البيوت بسرعة لفكرة الشيخ ومريده، إذ كان يلزم شيوخ التصوف تلاميذ يأخذون عنهم طريقتهم وينشرونها، بالإضافة إلى كثرة الأربطة وأصل معنى الرباط مرابطة الخيل للجهاد والحرب، وكأن زوايا المتصوفة كانت تبنى لهم على حافة قواعد الحرب الأمامية لجهاد أعداء الإسلام واتسع مدلول الكلمة فيما بعد فأخذت تطلق على زوايا المتصوفة عامة، حتى إنه يذكر الهجويرى[٣] (ت:

---

(١) نصر الله بورجفادى، ماسينيون ومفهوم الحب الذاتي الحلاجي في التصوف الفارسي، ط١ المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣م، ص١٣٣-١٣٤

(٢) أحسن التقاسيم، صـ٣٢٧

(٣) كشف المحجوب، صـ١٢٥؛ شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ج٤، ص٥١٥.

٤٧٠هـ/١٠٧٧م) أنه لقي ثلثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان ولكل منهم طريقته.

نخلص مما سبق أن السامانيين في صراعهم مع المذاهب المعارضة كانوا في منتهى القسوة والعنف، وهذا لاعتبارات اجتماعية واقتصادية وسياسية، كما فعلوا مع الشيعة الإسماعيلية والقرامطة، حتى المذهب السني انقسم إلى شافعية وحنفية، لكن موقفهم من المتصوفين كان مسالماً ومسانداً تماماً؛ لبعد الصوفية عن الحياة السياسية وأفكارهم تنصب حول الحديث عن حب الله والآخرة ويعتبر هذا تعبيراً سلبياً عن الواقع الاجتماعي القائم آنذاك.